أدب الملـــيم المزيف

للأستاذ حبيب الزحلاوى

إلى صديق الكريم الأستاذ صديق شيبوب :

يعسر على الكاتب فى النقد الأدبى ما يسهل على الكاتب المنشىء فى كتم خليقته وستر سريرة نفسه ، لأن النقد بيان وتفصيل ، ولا بد لا محيد للناقد عن التجرد الذاتى لينطلق حراً ، يقول الحق ويصور الحقيقة .

طهران ، وأما فى تاريخ الأدب العربى فلم تمهد هذه الألقاب ... وبعد فإن لم يكن بد من بيعة أحد الشعراء المعاصرين بالإمارة أو الملك فأيسر وسيلة لذلك أن يجتمع الشعراء وحدهم ويختاروا لأنفسهم ملكا أو أميراً عليهم . فإن فعلوا فليس بعد رأيهم مقال لقائل » . وأنا لا أرى أن هذه وسيلة يسيرة فضلا عن أن تكون أيسر وسيلة ، فمن يضمن لنا أن كلا من شعرائنا سينتخب غيره وأن سيكون لهذا الانتخاب نتيجة سوى أن يكون عدد الفائزين مساوياً لعدد الشعراء ... وخاصة إذا كان المطلوب صاحب جلالة فى الشعر لا أميراً فحسب .

ولم كل هذا وعندنا « ملك الشعراء » الدكتور زكى مبارك وقد كفى سائر الشعراء مشاق الاجتماع والنزاع والاختيار ، فأعلن نفسه ملكا عليهم ، ولعله كان قد انتظر أن يشعروا بأحقيته لهذا المنصب الخطير ، فلما رآهم مشغولين كل بنفسه ، وجد من حق نفسه هو أيضاً أن يتقدم إلى مكانه .

والدكتور زكى مبارك أو ملك الشعراء ، يفوق الشعراء جميعاً بالحرية التامة فى التعبير عما يريد ، فشعره صورة صادقة لنفسه ، ليس فيها مداجاة ولا تزوير . وهو رجل سليم الطوية لا يخشى — اذا ملك — أن يجور ، وفيم يجور ؟ !

« العباس »

الناقد المتجرد تمام واش ، يشق بنفسه على نفسه ، ويعترف بما فى قرارتها من أسرار ، ويبشر ما تنطوى عليه ضلوعه من سجايا وخلائق ومن كوامن دفينة أيضاً ، لأن طبيعة التجرد توجب ذلك ، ولأن التجرد والانطلاق صفتان بعيدتان كل البعد عن خلال المواربة والختل والمداورة والنفاق التى تعسر كل العسر على الكاتب فى النقد الأدبى.

قرأت ما كتب النقاد فى كتابى « أنات غريب » وأصخت بسمعى إلى ما ساقه البعض إلىّ من لوم وتجريح من ناحية ، وثناء وإطراء ومغالاة فى التقدير من البعض الآخر من ناحية ثانية ، فلم أقف طويلا عند واحد من أولئك المسرفين فى اللوم أو الإطراء ، ولكنى أشعر الآن بما يدفعنى إلى الوقوف طويلا — وجهاً لوجه — من صديق الكريم الأستاذ صديق شيبوب ، الكاتب الهادىء النفس ، المتكر لذاته ، القانع بالقليل القليل من الشهرة وذيوع الصيت ، الدؤوب على المطالعة والدرس والتنقيب والتعقيب ، المثابر على نشر فصل فى « الحياة الأدبية » مرة واحدة فى كل أسبوع ، فى صحيفة يعبد أربابها المال ، ويروجون للمضاربة فى أسواق المال ، وقد لا يقرأها أديب واحد غير يوم الجمعة ، لأنه ليس فى الأدباء ممن أعرف غير يهودى واحد وجزويتى واحد يضاربان ليكسبا المال فى سهولة الكسول ومغامرة القامر المضارب . فى هذه الصحيفة المالية يختبىء صديق الكريم وراء حرفين متواضعين من حروف الهجاء « صاد شين » فبينما نراه فى فصل من فصوله الأسبوعية يدرس كتاباً فى تاريخ قدماء المصريين أو الرومان واليونان ، نجده فى بوادى الجاهلية وصحارى الإسلام يقارن ويوازن ، ويفسق ويعادل هؤلاء بأولئك . وبينا نسمعه يروى أسطورة أو خرافة ، نراه ينشر قصة تصويرية لواقعة حال ، أو بحثاً تحليلياً لأديب جرى عليه النسيان ، أو يلخص كتاباً فى الأدب الفرنسى أو رواية عصرية ، وهو بين هذا وذاك يكتب فصولا بارعة فى دراسة الكتب التى تهدى إليه ، فيقرظها تقريظ المشجع أو المجيد ، تقريظ الأديب الغيور الذى يدفع بالؤلف إلى الاستزادة والإجادة ، ولكنى ما قرأت فى فصول صديق الأستاذ صديق سوى بعض فصول فى النقد كان يخص بها الأصدقاء والمعارف من المؤلفين . ولعلى أنصف صديق شيبوب إذا قلت إن فصوله

فى النقد الأدبى هى المتفوقة فى قيمتها والمتقدمة فى شأنها على بقية فصول يكتبها « فى الحياة الأدبية » .

على هذا الأساس إذن أقف من صديقى الناقد البارع أساجله مساجلة الراغب فى بلوغ الحق ، القاصد وجه الحقيقة : قال الأستاذ شيبوب فى العدد السابق من الرسالة :

« ... ولا يقف أدب الأستاذ حبيب الزحلاوى عند التأليف القصصى ، فإنه نقادة أدبى ، ولعل النقد الأدبى كان أول ما عالجه من فنون الأدب ، إذ تقدم كتابه « أدباء معاصرون » غيره من الكتب . وقد ظهر ميله إلى النقد فى أقصوصة « الدميم » لأنه عرض فيها للحبكة ، والعرض والفكرة ، والوحدة ؛ وذكر أنه « ليست قيمة القصة فى المادة التى تتألف منها ، ولا فى كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها فى الكيفية التى تؤدى بها ، وفى عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، وفى صدق الرواية عن الحياة ... » .

« وقد اضطر لبيان ذلك ، إلى حشر أقصوصتين فى أقصوصة واحدة ، وهما لا رابط بينهما غير فكرة العرض بمهارة وبغير مهارة » .

يعلم صديقى ولا شك أن مجال القصة واسع سعة الفضاء الذى يضم الكون ، وأن القاص إذا قصر فى تجواله بأجوائه ، إنما يكون تقصيره نتيجة لضعف فى خوافيه وقوادمه ، وفقر إلى الخيال المتسرح والذهن المبتدع . وأن المجالات الضيقة التى رسمها نقاد القصة ليست فى الضيق إلى الحد الذى يصد المبتكر عن شرح درس فى بناء القصة وتعليم من لا يعلمون أنها تسع كل ضرب من ضروب العلوم والفنون ، وكل رسم وصورة للحياة بكامل ظواهرها وبواطنها فكيف تضيق القصة إذن بالنقد الأدبى ؟ .

أقول القاص المبتكر تمييزاً له عن أولئك « الحلافيت » الذين يملأون الصحف « السوقية » بقصص فاجرة يضل القارىء فى مبتداها ومنتهاها ، وبتيه قاصّ الأثر البارع فى تتبع معالم وأغراض كاتبيها ، هذا إذا كانت لهم أغراض ومقاصد . ثم أى حرج على القاص وقد جعل بطل قصته معلماً حكيما يعلم تلامذته الأصول والقواعد ، ويهديهم سواء السبيل ؟ أيعاب عليه إبراز مثل ناطق يشهد على العشرات من القصصيين الذين يرتجلون القصة ارتجالا ولا غاية لهم سوى إثارة الغرائز وإلهاب الشهوات ! كيف ، بل لم تؤاخذنى ياصديقى على بيان « يميز بين قصة معروضة بمهارة ، وقصة لا مهارة فى عرضها ؟ ! » .

على هذا الأساس كتبت قصتى « الدميم » وبهذا الرباط ربطت بين القصتين ، قصة مرتجلة لا ضوابط لها ولا قواعد ، مرماها إثارة الشهوات الجنسية ، وقصة تتفاعل فيها عوامل الحياة الزاخرة بالصدق ، وهى معلومة الحدود والمعالم ، واضحة الطريقة والمذهب والغرض والأسلوب ، أيجوز لك يا صديقى ، بعد هذا أن تقول إن القصة مفتعلة لبيان فضل الأقصوصة الثانية على الأقصوصة الأولى ؟؟ .

لا أحسب أن هذا التجنى من صديقى الكريم جاء عفواً ، بل اعتقد أنه كان وسيلة لغاية ، لأن المقال الذى تفضل بكتابته عنى ، إنما كتب بروح من النقد ، والناقد كما علمنا نعام واش يشى على نفسه بنفسه : قال الأستاذ شيبوب :

« تناول الأستاذ حبيب الزحلاوى النقد الأدبى فى شىء من الجرأة ، وكثير من العنف ، مما جعل له خصومات أدبية قديمة وحديثة كانت إحداها مع أديب له مقامه المرموق فى عالم البحث والأدب والشعر ، والتجديد الذى يحاوله هذا الأديب الفاضل لا يروق الأستاذ الزحلاوى ، وهو حر فى رأيه . وكنت أعتقد أن هذه الخصومة تقف عند حد النقد الأدبى ولا تتعداه إلى التعريض فى إحدى القصص بذلك الأديب . والحق أنى كنت أجل صديقى الأستاذ الزحلاوى عن أن يستعمل مثل هذه الوسيلة لينال من أديب نابه لا يرضى هو عن أدبه » .

هنا مربط الفرس كما يقولون ، هنا يتجرد الناقد الذاتى المنطلق حراً فى القول والتصوير ، هنا تظهر وشاية النفس بالنفس ، هنا تبدو الكوامن وتطفو مخبآت السرائر ، وهنا أقف من صديقى الناقد وجهاً لوجه أسأله ، من هو ذلك الأديب صاحب المقام المرموق فى البحث والأدب والشعر والتجديد ؟ ما قيمة أدبه

وشعره وتجديده ، وكيف صحّ لصديق الأستاذ شيبوب السكوت عن الإشادة بهذه الفضائل المطمورة تحت الأطلال والملقاة فى الدمن ؟ هل استحى صديق الناقد من ذكر اسم ذلك الأديب الشاعر المرموق؟ أيرضى صديق الناقد أن أشفق على صاحبه فلا أذكر اسمه بل أرمز إليه بالإشارة ؟ أليس ذلك الأديب المرموق هو الذى مات مختنقاً عند وصيد باب مجلة « المقتطف » ولم يرثه رجال مأجور ؟ أليس هو الذى أضنانى شعره فرصدت مبلغاً من المال أغرى به أصحاب العقول السليمة على شرح شعره المضنى فلم يظفر بمالى أحد ؟

قد يعوزك الدليل يا صديق تدحض به ما رميتُ به أديبك المرموق ، أما أنا فلا أعدم الحجة أستمدها من شاعرك المجدد لأزيد الطين بلة .

نشر الشاعر المجدد قطعة عنوانها « نهار وليل » قال فيها :

« يودى لو أنهض والنهار باسم ، فألمح إلى عجائب فأستملى ، ولكنى أخو العجز ، لا أزال ظلا للنعاس المتثائب .

« ذات مساء إلى وليجة نفسى تحدّرت — بدوة من بدوات — هل أردت تصفح البستان لا ثمر فيه ولا زهر ؟ تحدرت وما استطعت الصعود ، لوجهى صرعنى هول ما دريت ما يكون .

« الحب وحده كان يقوى أن يسعفنى فأصعد ، لكنه جاء من بعد ، من عل ، من مغيّب البُعد ، أقبل عاجلا مترعاً بالضوء فيضىء غير مستحق ، شدّ ما فتنتنى فذوّبته فى خاطرى ، وفى الخاطر ظللنا روحاً لصق روح ، كلانا جائع مخفق .

« هل كان فى وسعى أن أدرك قبل أن أغفو وأذهب فى الغفوة — يا له من سبات لطيف فى ضميره خصب ونشاط — هل كان فى وسعى أن أحلمُ باليقظة الناعمة ، بالأعجوبة يعانقها النور ؟ .

« فى البدء داخل الليل نهارى وأسرف ، فغلظت العتمة بصرى ولكنى أصررت على التبصر ، أحرّ ، والآن الآن أذكر كيف لفت العتمة خاطرى ، يا لله ! يا ظالمة تجرى الحذارق فى وليجة نفسى ، يا ظالمة أصبحت منبت مصير محير مصيرى الوهاج » .

ها هى ذى قطعة كتبها الأديب المرموق الذى تطوع للدفاع عنه صديق الأستاذ صديق شيبوب أقدمها له راجياً منه أن يتفضل علينا بترجمتها إلى اللغة العربية التى يفهمها أمثالى من عباد الله المتواضعين .

ليسمح لى صديق الأستاذ شيبوب أن أذهب معه فى التسامح كل مذهب فى الافتراض الجدلى فأسأله هل إذا استطاع تذليل الصعاب ، وحل الطلاسم ، وفك الرموز ، هل فى مقدوره أن يرسم لنا صورة واضحة لمعانى هذا الكلام الذى قاله صديقه الشاعر المرموق ؟ هب أن المعانى كانت سامية حقاً ، ولكن ماهى قيمة المعانى إذا صيغت صياغة متشابكة متضاربة متنافرة ؟ لنفرض جدلا أن لكلمات هذه القطعة الفنية بمفردها وبمجموعها معان طيبة ودلالات إنسانية ولكن ما هو أثرها الفعال فى النفس ، هل هزتها وأسرت الرعشة فيها ، وهل علق معنى واحد فى ذهن قارئها ؟ لنفرض جدلا أنه قدم المتأخر من الكلمات وأخر المتقدم ووضعها فى وضعها الصحيح وأقحمها على الذهن إقحاماً وحشرها فيه حشراً فما هو قيمة هذا الأدب وما هو قدر هذا الكاتب ؟ ولمَ هذا العناء المضنى ؟

أردت يا صديق خصومة بين الأدباء لا عداوة ، ورفعت لواء هذه الخصومة عالياً فى كتابى « أدباء معاصرون » وما برح علمى يخفق فوق ساريته ليراه كل كاتب أو شاعر طمل يفاتك بالكذب والشر على الأدب والفن فيسمى الهرف تجديداً واللوثة حصافة ، وأعيذك يا صديق أن تكون طبيباً فى مصحة الأمراض العقلية .

تستوى عندى خصومة وعداوة من يعتدى على كرامة الأدب أو يحاول إلحاق الدنس الأدبى بنهضتنا التى لم يعرف تاريخ الأدب العربى لها ضريباً فى كل عصوره .

وليعلم صديق الكريم الأستاذ صديق شيبوب أن أدب صديقه الشاعر المرموق لا يساوى فى سوق الناقدين المتجردين غير المتحيزين مليما زيّفه مراب خسيس .

حبيب الزحلاوى